محمد ﷺ الشخصية القيادية
أنموذج قيادة «الهداية والقدوة»

بقلم: أ . د. سليمان ملوكي
جامعة المسيلة، كلية الحقوق والعلوم السياسية.
قسم العلوم السياسية.

مقدمة:

القيادة عملية توجيه وتحكم في الأفراد ليقدموا أفضل ما لديهم لتحقيق النتائج المرجوة من تنظيم اجتماعي، سياسي وإداري. وتتعلق بتوجيه الأفراد للتحرك في الاتجاه السليم، والقيام بالتزامهم وتحفيزهم لتحقيق أهدافهم. ووفقاً لما قاله وارين بنيس waren Benis فإن المديرين يفعلون الأشياء بطريقة صحيحة ولكن القادة يفعلون الأشياء الصحيحة[1]. فالمنظمة تتطلب قادة يفسحون المجال أمام الأفراد لأداء دورهم بصورة جيدة نحو أحد أدوار القيادة عندما يكون من الضروري التصرف بطريقة مسئولة في مواجهة الأزمات والمشاكل المختلفة.

قال الله تبارك وتعالى في كتابه الكريم: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[2] جاء النبي محمد ﷺ رحمة للعالمين، حيث بعثه الله تعالى ليُمثل الرسول الذي يوصل الخليقة إلى كمالها، فهويختلف عن غيره من الحكماء والسياسيين وأصحاب القدرات والنفوذ من الناس، لأنه يمثل الكمال المطلق في عالم الإمكان، ولذلك فإنّ الشريعة التي قدمها للبشرية جمعاء تتناسب مع كل زمان ومكان، وهي قادرة على إيصال الخليقة إلى الخيروالرشد والتقدم.

وليتجلى لنا ذلك لابد أن نعود إلى ذلك الواقع الذي جاء فيه النبي محمد ﷺ، حيث كانت فيه الجزيرة العربية مجموعة من القبائل المتناثرة المتناحرة لا يربط بينها رابط، والثقافة القائمة هي ثقافة الغَلَبَة (أي القوة) مما جعلها قبائل يأكل بعضها بعضا، وكانت الحروب منتشرة (كحرب داحس والغبراء وغيرها)

في وسط الجزيرة العربية وغربها، فينشأ العربي على أنه كلما كان أكثر فتكاً وإغارةً على غيره؛ كلما اتصف بالرجولة، دون منطق أو سيادة أو قواعد تراعي وتعترف بحقوق للغير. إنَّ أبلغ تعبير عن هذه الحال هو مصطلح «الجاهلية» بكل ما للكلمة من معنى، أي أنهم كانوا يجهلون كل شيء يُسهم في بناء مجتمعهم بناء صحيحا، عقديا، اجتماعيا وسياسيا[3].

ويمكننا الإشارة إلى عدة نقاط هامة تمثل شيئاً مما أحدثته بعثته ﷺ.

1 -مسألة القيادة والإدارة في المجتمع.

كانت الحروب تندلع وتستمر سنين عديدة بسبب ناقة -مثلاً-، وكانت حروباً تأكل الأخضر واليابس، دون أن يستطيع أحد إيقافها، مع وجود الحكماء الذين لا يستطيعون امتلاك التأثير في قيادة زمام الأمور بشكل كلي. فلما جاء الرسول محمد ﷺ قام بتثبيت مسألة القيادة وإدارة ذلك المجتمع القريشي، وهما مبنيان على أسس البناء العقائدي. وهو بُعْدُ الإيمان بكلمة التوحيد، إذْ قال ﷺ: «**قولوا لا إله إلاّ الله تفلحوا**»[4]، ومن خلال كلمة التوحيد انبعثت وحدة الكلمة، ولذلك نجده لما دخل مكة فاتحاً أشار إلى مسألة انبثاق وحدة الكلمة من كلمة التوحيد بإلغاء الامتيازات التي كانت في الجاهلية، كالدماء والأموال وغيرها مما لم يقم على أسس سليمة تنسجم مع الشرع الحنيف والقيم الإنسانية، وإنما كانت قائمة على الظلم، فقال ﷺ بأن: «**كل مأثرة أو غير مأثرة مُلغاة**»[5]. ثم جعل الناس سواسية كأسنان المشط عندما صدع بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ١٣﴾[6]. وهكذا أكد على مبدأ العدالة المنبثقة من خلال المساواة بين الأفراد مع ملاحظة التفاوت في القدرات والطاقات بينهم.

2 - العلاقة الوثيقة بين القيادة والإيمان.

إنّ البُعدَ الذي أدخله النبي ﷺ هو مبدأ القيادة المرتبط بالهدف الوجودي الإيماني والذي هو جعْلُه مبدأً عاماً، وفي ذلك يقول: (**كلكم راعٍ، وكلكم مسؤول عن رعيته**)، إذّ أنّ كل شخص يمتلك إمكانات ذاتية يمكنه تنميتها، فما من فرد إلاّ وهو مسؤول عن افعاله وتصرفاته. وعندما نرجع إلى مبادئ القيادة الحديثة

عند تايلور Frederik Tylor مؤسس القيادة والإدارة الحديثة[7] فإننا نراها مبادئ مؤسسة لأهم نظريات التنظيم الإداري والفكر الاستراتيجي الحديث، وهي خصائص يجب أن يتفطّن لها القادة السياسيون والإداريون:

أ - الحرص على استمرار عملية التبليغ والإقناع.
ب) البصر الحكيم بالموقف الذي يتخذ من الخصم.
إن أي دعوة من الدعوات إذا لم تستطع تأمين عملية استمرار التبليغ والإقناع تجمد ثم تنحصر ثم تموت. وأي دعوة من الدعوات لا تتخذ الموقف المناسب من الخصم تضرب ضربة ساحقة ثم تزول.

عندما ندرس هذين الجانبين في العمل عند رسول الله ﷺ نجد أنه قد نجح فيهما. فرغم تألب الجزيرة العربية كلها عليه، ورغم العداء العنيف الذي ووجه به، ورغم كل شيء فإن عملية التبليغ لم تنقطع لحظة واحدة.

فإذا ما انتقل إلى المدينة رأيت تجدد مواقفه على حسب الظروف الجديدة من معاهدة إلى سلام إلى غزوة فتح إلى ضربة هنا ووثبة هناك. ولكن هذا كله لم يؤثر بتاتاً على عملية تبليغ الحق وإقناع الناس به على كل مستوى وبكل وسيلة ملائمة[8].

3 - الخطة النبويّة (الاستراتيجية) لاستمرار المدّ الحضاري للإسلام.

لقد حرص الرسول الكريم على إرساء مبادئ الإدارة داخل المجتمع الإسلامي والتي تركّز على نجاح الإداري والقائد، وأسس الإيمان الذي يصنع الشخصية والسلوك الحميد، ويمكن إجمال ذلك فيما يلي من النقاط:

1 - مبدأ اعتبار المسؤولية لكل فرد تجاه مجتمعه: فعندما يدرك المجتمع أنه يمتلك طاقات وقدرات في زمن متغيّر، فإنّه من اللازم عليه تسخيرها في سبيل صنع مجتمع متقدم.

ومن جُملة ما يُدلل على ذلك إرساله الرسل في الغزوات والحروب والسرايا إلى أطراف متعددة، كإرساله جعفر بن أبي طالب وزيد بن حارثه وعبد الله بن رواحة، جاعلاً مبدأ القيادة مبدأً مستمراً لا يقتصر على الحرب فحسب، بل كان ينظر إلى من يخلف القائد بعد أن يُقتل أويموت، لأن نظرته كانت تستشرف المستقبل.

2 - إدخال الأخلاق في القيادة: ويتأكد ذلك من خلال الأشخاص الذين كان يبعثهم الرسول ﷺ كمعلمين أو دعاة أو قادة أو أمراء حرب أو فاتحين [9].

4 - دقّة الإدارة النبويّة بالمقاييس الحديثة.

في مجتمع غير المجتمعات العربية كانت توجد بعض الإنجازات للعقل البشري في مبادئ القيادة والإدارة، وكانت تركز على فئة خاصة، مثلاً أن مبادئ الإدارة العلمية تتلخص في الطريقة المثلى لأداء العمل وإعادة الأفراد والحاجة إلى التعامل بين من تقودهم والتنظيم الوظيفي والتخصص في إدارة المال الذي تدفعه ثم دراسة الأساليب والتركيز على الوظائف في الهرم الإداري، وبالتالي المساءلة وفق معايير الرقابة الإدارية الحديثة، وملاحظة التعاون بين الأفراد، فهذه المبادئ العامة نجدها مُراعاةً في أوامر الرسول ﷺ.

وبالنظر إلى الحضارات الأخرى كالأقباط (المصريين) عام 1600 قبل الميلاد، فإننا نجدهم يمتلكون بعض التنظيمات، ولكنها قليلة، وكذلك الحضارة البابلية في قانون حمورابي عام 800 قبل الميلاد[10].

وقد أوجد الفلاسفة -من الصينيين القدماء- بعض الأساليب التنظيمية، لكنها كانت تتجه توجها ماديا أي كيف يُضفي صاحب المال نظاماً إدارياً يستطيع من خلاله استثمار قدرات العمال لديه، أما النبي ﷺ فقد كان يركز في إدارته على الأمة بشكل كلّي ويستطيع أن يلحظ الأمة كوحدة لا تتفكك عُراها.

وهناك إبداعٌ لبعض الفلاسفة والمفكرين في مجال الإدارة والتنظيم وفي وضع بعض النظريّات الإداريّة، ولكنها نظريّاتٌ لم تُطَبَّق كأسلوب عملي، فسقراط -مثلاً- أكد على مبدأ الإدارة العامة لكل الوحدات الاجتماعية[11]، ولكنه لم يُعمِّق هذه النظرية في عالم الواقع، أما النبي ﷺ فقد كان يستطيع أن يقود المجتمع وتوجيهه، وهذا هو الامتياز الذي أوجده النبي ﷺ هو الذي هدى الأمة وبناها بناء اجتماعيا وسياسيا جديدا.

5 - واقعنا المعاصر والقيادة النبويّة.

من خلال ما أسلفنا يمكن أن نستفيد من القيادة النبوة الراشدة في عصرنا الراهن من خلال ما يلي من القيم والتوجيهات:

أولاً / المجتمع الذي يسعى لاستشراف المستقبل والتقدّم بواقعه عليه أن يولي اهتماماً وعناية بمسألة القيادة والإدارة.

ثانياً/ التوكيد على مسألة الكفاءة: فعلى المجتمع أن يتعلم درساً من حياة الرسول ﷺ ؛ وهو ضرورة وجود القائد، حيث كان عندما يُرسل شخصين يجعل أحدهما قائداً للآخر، وهذا أسلوب في عدم بعثرة الطاقات.

في ظل المتغيرات التي تواجه المسلم المعاصر تصبح العودة إلى القدوة النبوية ضرورة لازمة لإعادة صياغة حياة المسلم المعاصر في علاقاته الخاصة وفي تعاملاته وتفاعلاته مع كل مجريات العصر. إن النبي الأمي محمد بن عبد الله ﷺ يمثل قدوة المسلمين، اصطفاه الله تعالى ليكون نموذج الطهر والنقاء في التعامل مع الآخرين[12].

وبعد نزول الرسالة ظل ورغم احتياجات بناء الدولة الإسلامية وعظم مسؤولية القيادة متودداً للفقراء رحيماً بقلوب الأيتام والضعفاء يقربهم إليه ويشاركهم تقلبات حياتهم. لقد رَبّى بالقرآن الكريم جيل الصحابة فأخرج من أودية الجاهلية المقفرة مشاعل نور وحضارة قيم غيرت وجه التاريخ[13].

إن سيرته تنعم بكنوز من الفوائد والدرر النبوية التي يمكن لكل مسلم على اختلاف تخصصه ومجال عمله واهتماماته وظرفه الزماني والمكاني أن يطبقها لينعم بحياته ويسعد في آخرته. فما علينا سوى أن ننهل من معينه المضيء وأن نقطف من بستان قصصه بعضاً من تلك الثمار اليانعة لنكتبها أولاً ثم لنتمثلها سلوكاً في حياتنا ثانياً[14].

أهم الاستنتاجات البحثية:

1/القيادة عملية توجيه وتحكم في الأفراد ليقدموا أفضل ما لديهم لتحقيق النتائج المرجوة. وتتعلق بتوجيه الأفراد للتحرك في الاتجاه السليم، والقيام بالتزامهم وتحفيزهم لتحقيق أهدافهم.

2/ المجتمع الذي يسعى لاستشراف المستقبل والتقدّم بواقعه عليه أن يولي اهتماماً وعناية بمسألة القيادة والإدارة.

3/ إن مبادئ القيادة والإدارة العلمية تتلخص في الطريقة المثلى لأداء العمل وإعادة الأفراد والحاجة إلى التعامل بين من تقودهم والتنظيم الوظيفي والتخصص في إدارة المال الذي تدفعه ثم دراسة الأساليب والتركيز على الوظائف في الهرم الإداري.

4/ التأكيد على مسألة الكفاءة: فعلى المجتمع أن يتعلم درساً من حياة الرسول ﷺ ؛ وهو ضرورة وجود القائد، حيث كان عندما يُرسل شخصين يجعل أحدهما قائداً للآخر، وهذا أسلوب في عدم بعثرة الطاقات.

5/ في ظل المتغيرات التي تواجه المسلم المعاصر تصبح العودة إلى القدوة النبوية ضرورة لازمة لإعادة صياغة حياة المسلم المعاصر في علاقاته الخاصة وفي تعاملاته وتفاعلاته مع كل مجريات العصر.

6/ علينا أن يستفيد من سيرة الرسول الكريم الإيمانية، من خلال تأدية الواجبات الأسرية والالتزامات مع الأقارب والأصحاب واظهار الأسوة الحسنة في التعاملات بين المسلمين وغيرهم.

قائمة المصادر والمراجع:

(1) – جان بيار كوت، من أجل علم اجتماع سياسي، ترجمة محمد هناد، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر ص234.

(2)- سورة التوبة، الآية رقم 129.

(3) د/عبد الرحمان علي الحجي، جوانب من الحضارة الإسلامية، شركة الشهاب، الجزائر ص07.

(4)- قَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ أَحْمَدَ: حَدَّثَنِي أَبُو سُلَيْمَانَ الضَّبِّيُّ دَاوُدُ بْنُ عَمْرِو بْنِ زُهَيْرٍ الْمُسَيِّبِيُّ ، قَالَ: حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ أَبِي الزِّنَادِ ، عَنْ أَبِيهِ ، عَنْ رَبِيعَةَ بْنِ عَبَّادٍ الدِّيلِيِّ وَكَانَ جَاهِلِيًّا أَسْلَمَ، فَقَالَ: رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بَصَرَ عَيْنِي بِسُوقِ ذِي الْمَجَازِ يَقُولُ: « يَا أَيُّهَا النَّاسُ، قُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، تُفْلِحُوا «

(5)- حَدَّثَنَا ابْنُ حُمَيْدٍ ، قَالَ: حَدَّثَنَا سَلَمَةُ ، عَنِ ابْنِ إِسْحَاقَ ، عَنْ عُمَرَ بْنِ مُوسَى بْنِ الْوَجِيهِ ، عَنْ قَتَادَةَ السَّدُوسِيِّ ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَامَ قَائِمًا حِينَ وَقَفَ عَلَى بَابِ الْكَعْبَةِ، ثُمَّ قَالَ: « لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ، صَدَقَ وَعْدَهُ وَنَصَرَ عَبْدَهُ، وَهَزَمَ الأَحْزَابَ وَحْدَهُ، أَلا كُلُّ مَأْثَرَةٍ أَوْ دَمٍ أَوْ مَالٍ يُدَّعَى فَهُوَ تَحْتَ قَدَمَيَّ هَاتَيْنِ إِلا سِدَانَةَ الْبَيْتِ وَسِقَايَةَ الْحَاجِّ.

(6)- سورة الحجرات الآية رقم 13.

(7)- مصطفى، صلاح عبد الحميد وفاروق، فدوى. مقدمة في الإدارة والتخطيط التربوي، ص 85.

(8) - د/حسين مؤنس، دراسات في السيرة النبوية، ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر، ص33.

(9)- المرجع نفسه، ص36.

(10) د/عبد الرحمان علي الحجي، جوانب من الحضارة الإسلامية، شركة الشهاب، الجزائر ص07.

(11) د/ فتح الله أحمد محمد العجيلي، الإيمان بالله والجدل الشيوعي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ص67.

(12) محمد بن جميل زينو، توجيهات إسلامية لإصلاح الفرد والمجتمع، الطبعة الخامسة عشرة، وزارة الإعلام، مكة79.

(13) د/ محمد عمارة، الإسلام وضرورة التغيير، مجلة العربي، 1998، ص11.

(14)- محمد بن جميل زينو، توجيهات إسلامية لإصلاح الفرد والمجتمع، مرجع سابق، ص85.

